رمز الطير في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر الحمامة والغراب اختياراً

الباحثة: آمنة باسم عبد الرسول

أ.د. علي مطشر نعيمة

جامعة البصرة ــ كلية التربية للعلوم الإنسانيَّة ــ قسم اللغة العربيَّة

ملخص البحث:

نظراً لما تحملهُ الطيور من دلالات تتصف بالحركة والانتقال ، فقد وظفها شعراء بني الأحمر في نصوصهم الشعرية ، بحسب ما يشعرون بهِ وما يؤثر فيهم ، فقد تكون معادلاً موضوعياً يستطيع الشاعر أنْ يقول لهُ ما لا يستطيع أنْ يقولهُ لغيره ،فتنشأ علاقة نفسية بين الشاعر وتلك الطيور ويعّد طائر الحمام من أكثر الطيور حضوراً في الشعر الأندلسي ومرجع ذلك غالباً لما يوحي بهِ منظر هذا الطائر من وداعة ،وجمال ، وألفة ، ميزّتهُ عن غيرهُ من الطيور الأخرى ، ووظّف الشعراء طائر الغراب بدلالتهُ على مرحلة الشباب و التشاؤم والفراق .

الكلمات المفتاحية: رمز الطير، الشعر الأندلسي، عصر بني الأحمر، الحمامة والغراب .

The Symbolism of Birds in Andalusian Poetry during the Reign of Banu- Al-Ahmar: The Pigeon and the Raven as a Study Choice

Researcher : Amina Bassim Abdul-Rasoul

Prof. Dr. Ali Mutasher Nua'ima

Dept. of Arabic Language, College of Education for Human Sciences, University of Basrah

Abstract:

Birds represent mobility and travel, thus Banu-Al-Ahmar poets included them in their works. The poet may be able to express himself more fully through the use of birds as an objective correlative. The poet consequently develops a psychological bond with these birds. Because of its appearance, which distinguished it from all other birds by implying meekness, attractiveness, and tameness, the pigeon frequently occurs in Andausian poetry. The raven was often used by poets to represent youth, superstition, and departure.

Key words: The Symbolism of Birds , Andalusian Poetry , Reign of Banu-Al-Ahmar , The Pigeon and the Raven.

المقدّمةُ:

يتناول هذا البحث رمز الطير في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر اختياراً، لتكون مجالاً للبحث، وذلك لافتقار الدراسات الأكاديمية التي تناولت هذا الجانب ، وأهمية هذهِ الفترة الزمنية وتنوعها من حيث الغزارة الشعرية وتدفقها ، جاء البحث في مقدمة ، فتمهيد ، ومبحثين ، الأول رمز الحمامة ، والثاني ، رمز الغراب ، فخاتمة ، ثم الهوامش ، وقائمة المصادر والمراجع .

التمهيد:

تُعّد الطيور جزءاً من البيئة الطبيعية، يحمّلها الشاعر، أبعاداً رمزية عدّة، تكشف عن رؤيا الشاعر إلى ذاتهِ وإلى الكون، وكثيراً ما وظفها الشعراء، كونها تعّبر عن خصوصية في العلاقة بين الذات الإنسانية والطبيعة، التي ابتدعها الله تعالى ، وذلك في إطار علاقة حميمية تبادلية بين الشاعر نفسه، وأصناف الطيور المختلفة ، لتتقارب ذات الشاعر مع ذات تلك الطيور ، إذْ إنهُ يخلع عليها كثيراً من خلجاتِ نفسهِ المكبوتة ، وأعماق نفسهِ الدفينة .

إذْ أنَّ ((للطبيعة الأندلسية الساحرة أثرها الكبير في خصبِ عقولهم، ورفاهية حسهم ، ورقة تصويرهم، وسعة خيالهم)) .[١]

فالطير بالنسبة للشعراء وسيلة من الوسائل المهمة التي يبثّون من خلالها نجواهم ، ومتاعبهم، وأحزانهم [٢] .

انَّ الشعراء عند توظّيفهم الرموز الطبيعية، يقومون بتشخيصها وتحويلها إلى كائنات إنسانية، تفرح وتحزن ، أيّ إنهم يسقطون على الطبيعة مشاعر حية تضجُ بالحياة ، وهكذا فالشاعر يستمدّ صور الرمز من واقع الطبيعة ، ويحاول بث الحياة في أوصالها ، بما يسبغهُ عليها من مشاهد رمزية تنسجمُ مع ذاته ورؤيتهُ [٣] فالحمامُ مثلاً ، وهي من الرموز المتحركة، تشدو وتسجع، وتهدل ، وتحرك في قلوبِ العاشقين كينونتهُ ، وتثير فيهم شوقاً لا متناهياً إلى ما يمكن أن يوصف بانهُ عود إلى البدء [٤] إذْ ((عقد الشاعر مع الحمام علاقة نفسية قائمة على الوفاء والترابط الوثيق بين الطرفين)) [٥]

تعددت أصناف الطيور ، وتتباين رمزيتها لدى الشعراء ، فمنهم من يبثُ الحياة في تلك الطيور ويشخصها محوّلا إياها إلى معادل للوجود الإنساني ، ومنهم من يجعلها رمزاً دالاً على أمور معنوية ، مثل الأسر والحرية .

و تنشأ علاقة نفسية بين الشاعر وتلك الطيور على اختلاف أنواعها ، لتكون شاهدة على لحظات عجزهِ وانكسارهِ ، و قد تكون معادلاً موضوعياً يستطيعُ الشاعر أن يبوح لهُ بما لا يستطيع قولهُ لبني جنسه ، في حوار تتنوع دفقاتهُ الشعورية بين الفرح والسعادة ، واليأس والأمل .

لقد تعلق العربي بالطير، وجرى ذكرهُ على ألسنة الشعراء واتخذوهُ رموزاً يخاطبونهُ في أفراحهم ، وأحزانهم ، ويوجهون إليهِ العتاب ، ويلقون عليهِ اللوم كما في طائر الغراب .

وتعبيراً عن هذهِ المناجاة التي تعّد الأساس النفسي لدى الشاعر فيما يحملهُ من مشاعر واحاسيس، ليعبر من خلال هذا الطائر ، عمّا يحسُ ويشعر، فاختلفت هذهِ المناجاة من عتاب أو حوار ، أو لوم ، أو مناداة ، أو حب ، بحسب الموقف النفسي الذي يعيشهُ الشاعر . (٦)

أولاً / رمزية الحمامة:

عُدّت الحمامة رمزاً من رموز الشعر العربي ، وقد تنّوع توظيفها في القصيدة الغزلية ، إذ أوحت بالمعاني السامية للحب ، والعشق ، ولهذا ((فقد اكتسبت الحمامة جانباً عاطفياً لهُ دلالة خاصّة)) (٧) كونها تتضمن ((معاني الحب ، والصبوة، وكان لها علاقة خاصة بموضوع العشق، فارتبطت بالمرأة أقوى الارتباط)) (٨) .

المطالع لرمز الحمامة ، في القصيدة الغزلية، يدرك أنها في كثير من المواقف ترتبط بأجواء الألم والحزن، المصحوبة بحرقة الحب ، ولوعة الفراق ، وقد قامت العلاقة بين الحمامة والشاعر على المشاركة الوجدانية ، يحاكيها ، يغازلها وتصبح الحمامة هي الرمز الأنسب للمرأة يبثّها مكنون نفسه ، وخلجات قلبه ، فضلاً عن عدّها رمزاً يستر بهِ الشاعر محبوبتهِ وحقيقتها .

ويعّد طائر الحمام من أكثر الطيور التي لها حضوراً ، في الشعر الاندلسي ، ومرجع ذلك لما يوحي بهِ منظر الطائر من وداعة وجمال وألفة ، ميزتهُ عن غيرهِ من الطيور الأخرى ، وهذا ما يعكس جمال الطبيعة وبهائها في العصرِ الاندلسي .

والحمامة ترتبطُ بالشعراء وتشاركهم مشاعرهم الوجدانية ، إذْ تحرك في نفوسهم لواعج العاطفة والشجن ، بما يثيرهُ الحمام من هديل ، ونوح ، وشدو .

لقد كثُر ذكرُ الحمام في اشعارِ العرب وعلى مر العصور وذلك لما ((يهيجهُ نوحها من كوامن الاشواق ، ولوعة الحنين ، وحرقة الجوى ، ففي رقة تسجيعهِ ما يبعثُ التذكر ويولد الشجون ، ويهيج الاسى، ويجدد رقة القلب ، حتى جُعل البكاء فرضاً معها ، والتصابي لازماً لأجلها)) (٩)

ونجد الشاعر ابن زمرك ، قد استعان برمزِ الحمامة ، ودل بهِ على البلاغة والفصاحة ، نحو قولهِ: (١٠)

تُشرِّفُ بالإنشاد عبدكَ دَهرهُ فدُمتَ عليهِ منعماً مُتطولاَ
وما هو الاّ ساجعٌ حلّ جنةً مددتَ عليّهِ ظلّها المُتهدلا
وطوقتهُ طوقَ الحمامِ أيادياً فأسمعكَ السّجعَ الغريبَ المُفصّلا
ولمّا رأى أنّ البلاغةَ تنتهي ولا ينتهي ما حزتَ من شرفِ الحُلا
وأعجلهُ التقصيرُ بعدَ اجتهادهِ ترامى على يُمناكَ يدعُو مُقبّلا

إن الشاعر ابن زمرك يرسمُ لوحة فنية بريشة شعرية فائقةُ الجمال ، إذ يصور البلاغة وفنونها بوصفها جنّة وارفة الظلال ، إذ يقول : وما هو الاّ ساجعٌ حلّ جنة ، لقد نزلها رغبة في أن يشفي غلتهُ بأن يجد من فنون البلاغة ما يعينهُ على مدحِ ممدوحهِ وإعطائه حقّهُ من الثناء الذي يستحقهُ .في البيت الأول نطالع الشاعر يوظف لفظة (ساجع) وهو معادل موضوعي للشاعر نفسه ، إذ ترمزُ إلى صوت الشاعر وهو يُلقي قصيدتهُ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٨ – حزيران لسنة ٢٠٢٣

أمام مسامع الممدوح . أما في البيتِ الثاني فقد وظف الشاعر لفظة (طوق الحمام) رمزاً لعطايا الممدوح للشاعر وهي عطايا لا تعدُ ولا تُحصى .

ويؤكد الشاعر جمال قصيدتهِ التي تُقابل عطايا الممدوح المحدودة للشاعر ، في قولهِ : فأسمعك السّجعَ الغريبَ المفصّلاَ ،فكما انَّ عطايا الممدوح تطوق الشاعر وتحيطُ بهِ كما في طوق الحمامة ، فإن الشاعر قد أجاد وابدع في هذهِ القصيدة المدحية ليبين من خلالها مكانة ممدوحهِ وفضلهُ العظيم عليهِ .

تتجلى رمزية الحمام ، من خلال الطوق الذي يطوق عنقها ، الذي رمز إلى عطايا الممدوح ،التي تطّوق الشاعر وتحيطُ بهِ ، فتصبح الحمامة رمزاً حركياً ينتقل للشاعر من خلال العطايا والكرم اللامتناهين للشاعر ، يجّسد معاني الشكر والامتنان والثناء للممدوح .

ويتكرر رمز الحمامة الدال على نعم الممدوح تجاه الشاعر في قول الشاعر ابن فركون إذ يقول : [١١]

على أنّ من نعماك صُبح هدايةٍ ... يبينُ لي النهجَ القويمَ ويُوضحُ
تُطوّقني طوقَ الحمامةِ منعماً ... فأصبح في روضِ المدائحِ أصدحُ
فللنّثرِ منها في المعاني مدائحٌ ... وبالدُّرِ مِنْها للغواني توشحُ
دعَا لكَ بالتأْييدِ كلُّ مُوحّـــدٍ ... لذلكَ أبوابُ السّماءِ تُفتَّحُ

يقرّ الشاعر بالدور العظيم للممدوح في حياتهِ في عبارة موجزة بقولهِ : (على أنّ نُعماكَ صبح هدايةٍ) لتأتي (من) حاملة معنى (البعض) أي القليل من كثير ، لأنهُ أفضاله كثيرة ، وصبح الهداية جزء من تلك النعم .

تمتد الصورة ، ليظهر تأكيد معنى المدح في قولهِ : (يبينُ لي النهجَ القويمَ ويوضحُ) ، موظفاً الشاعر الفعلين (يبينُ ويوضحُ) ، لوجود علاقة ترادف بينهما ، فضلاً عن اتفاقهما في زمنية الفعل المضارع، الذي يدل على تجدد العطاء واستمراريته .

أضاف الشاعر كلمة (الطوق) إلى الحمامة ، وقد ارتبط هذان اللفظان في الثقافة العربية ببعضهما البعض .

ويُجري الشاعر مقاربة لفظية ومعنوية بين اللفظين (تطوقني) و (الطوق) ، فكما أن الطوق يطوق عنق الحمامة فإن نعم الممدوح وفضله تطوقُ عنق الشاعر وتحيطُ بهِ ، ويأتي لفظ الحال (منعماً) ليعزز دلالة فضل الممدوح على الشاعر .

ونطالعُ الشاعر(ابن فركون) في نص آخر مبدعاً في سماء الدلالة الرمزية للحمامة ،إذ يقول : [١٢]

لا زالَ مولاي يُبدي منْ مكارمهِ ... ما يبهجُ الدّينَ والدُّنيا تماديها
حمائمُ الفكرِ في روضِ النّظامِ غدت ... صوادحاً بالنّدى تروي صواديها

يرسمُ الشاعر لوحة فنية بحروفهِ ، فتلك مكارم الممدوح تبدو جلية واضحة ، في صورة تشخيصية تبهج النفوس ، وتقرُ بها العيون ، وتدخل السرور على الدين والدنيا ، وهو القائل : (وما يبهج الدّينِ والدنيا تماديها)

قد جمع الشاعر بين طرفي النقيض (الدينِ والدنيا) ، ليؤكد شمولية تلك المكارم وتنوعها ، كما نرى زمنية الأفعال (يبهجُ ، تماديها) ليؤكد استمرارية العطاء ، وتجدد المكارم مع توالي حركة الزمن ،ويضيفُ الشاعر

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٨ – حزيران لسنة ٢٠٢٣

كلمة (حمائمُ) إلى (الفكر) ، ليرقى بالحمائم إلى سماء الرمزية ، وينأى بها بعيداً من المحسوسات والمدركات المادية إلى سماء المعنوية ، راسماً لها صورة ممتدة داخل البيت الشعري . يُلحظ تعدد وجوه التشخيص في تلك الصورة ، على النحو الآتي :

ـــــ حمائمُ الفكرِ ، تجلت في تلك الرياض الوارفة ، في بساتين البلاغة

ـــــ تلك الحمائم ، قد (غدت صوادحا) ، ويرتفع صوتها العذب بالغناء ، لتجمع الصورة بين جمال اللون ، وجمال الصوت .

تلك الصورة الفنية التي رسمها الشاعر لتؤكد الدلالة الرمزية للحمام بوصفهِ رمزاً متحركاً ، لهذا فقد تعددت جوانب الحركة في البيت الشعري في ، (يبدي ، يبهجُ ، تماديا ، صوادحا ، تروي) ، وإذا كان الرّمز متحركاً فقد جاءت الدلالة المقترنة بهِ أيضاً متحركة ، لتعزز مكانة الممدوح في قلوب الناس ، لما قدمتهُ رمزية الحمام من تأكيد للمعنى فلقد ((كانت لقصائد المديح في الشعرِ الأندلسي تقوم مقام اللوحات الفنية الرسمية التي كان كثيراً من غير المسلمين من الملوك ، يؤجرون بعض الرسامين لرسمها)) [١٣]

وترمزُ الحمامة في الشعر الأندلسي إلى جو نفسي يخيمُ عليهِ الحزن ، نحو قول الشاعر عبد الكريم القيسي : [١٤]

لبلّيتي يبكي الحمامُ هديلا ولِمحنتي يرثي العدُوُّ طويلاَ

ولبعضِ ما ألقاهُ تنصدعُ الصّفا والغيثُ يهمي بكرةً وأصيلا

أسرٌ تُصاحبهُ القيودُ وضيقُها ومتاعبٌ تذرُ الفؤادَ عليلاَ

يخلعُ الشاعر على الحمامِ صفات إنسانية ، فنراهُ عندما يرى الشاعر يبكي ويحزن فالحمامُ ((يبكي لبكائهِ ، ويحزن لحزنهِ ، ويشجو لشجوهِ)) .[١٥]

نتأمل في الابيات السابقة ، الصورة الفنية للشاعر الذي يشكو من ذلّ الاسر والقيود ، وقد تجلى ذلك بقولهِ : (أسرٌ تصاحبهُ القيودُ وضيقها) ، وقد تفاقمت المتاعب فوق رأسه، وأبت أن تتركه مستريح البال ، فهي (متاعبٌ تذرُ الفؤادَ عليلا) ، ما يعني أنّ الشاعر يعاني من حالة اغتراب نفسيّ يسببهُ لهُ عالمهُ المحيطُ بهِ ، لذا أصبح مكبل اليدين ، مثقل الهموم ، عليل الفؤاد ، لهذا تجاوبت الطبيعة مع الشاعر ، وشاركتهُ وجدانياً تلك الحالة النفسية القاتمة ، ومن تلك العناصر التي شاركتهُ أحزانهُ ، وواستهُ في بلواه ،الحمامُ وهو يبكي هديلاً بصوتهِ الشجي ، مما يزيد في مدى تفاعل الحمام مع الشاعر في مؤازرته في بليته، فقد اكتسبت الحمامة في الشعر بُعدا من الابعاد العاطفية الخاصة [١٦] .

استطاع الشاعر أن يوظّف الحمام بوصفهِ صديقاً حميماً يشاطرهُ أحزانهُ ، ويتعدى إحساس الحزن ليتحول المشهد إلى بكاء طويل ، ونحيب مرير في مشاركة سريعة من الحمام إلى الشاعر ، وقد تجلى ذلك في قولهِ : (لبليتي يبكي الحمام هديلاَ) ، لقد كانت البلية للشاعر الاّ أن التأثير المباشر، والرد السريع من هذا الطائر الذي يمثل أنموذجاً ورمزاً للمشاعرِ الفياضة .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٨ – حزيران لسنة ٢٠٢٣

ويربط الشاعر ابن خاتمة الأنصاري ، الحمام برمزية الحُزن ، على الرُغمِ مما يحدثهُ هذا الجو المفعم بالحزنِ والبكاء من أثر عكسي في الرياض ، نحو قوله : (١٧)

قمْ هاتها فرياضُ الكونِ قد جُليت وقامَ للحُسن ترتيبٌ على قدمِ

...

وساجلت أدمع السحب الحمام بُكاً على الرياضِ فأضحى جدّ مُبتسمِ

فسلْ أزاهيرَ روضِ الحُسنِ غبّ ندى هلْ نبّهتْ وقعاتُ الطلّ عينَ عمِ

تتناغم عناصر الطبيعة ، ومنها السُحب والحمام ، ومشاعر الشاعر الفياضة ، الجياشة ، إذ تفيض دموعها وتنسكبُ غزيرة، تسحّ على الرياض فيبتسم ، من هنا قوله: (فأضحى جدُ مبتسمُ) وتظهر الاثار في صفحات الرياض إذ تزدهرُ الأزاهير ، ويزداد حسنها في عين الرائي ، والجميلُ أن الشاعر يجمع من عناصر الطبيعة الواحدة حالتين من الحالات النفسية المتباينة في البيتِ نفسهِ ، وهما :

ـــــ حالة الحزنِ والشجن ، وهي ملازمة للحمامِ والسحب ، وقد تجلى ذلك في قولهِ : (وساجلت أدمع السحب الحمام بكا)

ـــــ حالة السعادة والابتسام ، وهي ملازمة للرياض (فأضحى جدُ مبتسمُ) .

على الرغم من عدم الانسجام النفسي ، بين الحالتين ،الاّ انها تؤكد حقيقة ارتباط جو الحزن والشجن بالحمام . ومن الجديرِ بالذكر أنَّ الحمامة قد ارتبطتْ في الشعرِ الأندلسي غالباً بذكرِ الفراق والبين ، فأكثر الشعراء قد ربط في شعرهِ بين الحمامة ومعاني الحزن والالم والفراق ، فكانت الحمامة تذكرهم بالغربة ، وتتعاطف مع الشعراء ، وتشاركهم أفراحهم وأحزانهم (١٨) .

والشاعر لسان الدين بن الخطيب يتعجب من كثرة بكاء الحمامة ونحيبها فيقولُ فيها : (١٩)

حمامةُ البان ما هذا البكاءُ على مرّ الزمانِ وهذا الشجو والشجنُ

لا مسكنٌ بنتَ عنهُ انت تندبهُ ولا حبيبٌ ولا خلٌ ولا سكنُ

كفّ خضيبٌ وأطواق ملّونةٌ ما هكذا البثُ يا ورقاءُ والشجنُ

لقد رسم الشاعر ابن الخطيب هذا المشهد المأساوي المتمثل بالبكاء الملازم للحمامة ، وحزنها المستمر الدائم ، وهذا وكما يبدو أنهُ نابعٌ من الفراق الذي يعانيهِ الشاعر ... انهُ فراقُ الاحبة والشوقُ إليهم ،والحنين لقربهم ، فتأثر الشاعر بالحمامة وبكائها بعدّها أحد عناصر الطبيعة ، ((فقد كان الشاعر يستلهمُ من مناظر الطيورِ واصواتها ، وألحانها ، وحركاتها ، كثيراً من جوانب الفرح ، والألم ، والسعادة ،والشقاء ،والتفاؤل ،والتشاؤم)) (٢٠).

ويوظف الشاعر لسان الدين بن الخطيب في نص آخر الحمام رمزاً دالاً على الثبوتِ والاستقرار، قائلاً: (٢١)

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٢ – المجلد ٤٨ – حزيران لسنة ٢٠٢٣

هاجتك إذ جئت اللّوى فزرودا ذِكراكِ أوطاناً بها وعهودَا
عَاثت بهنّ يدُ الزّمانِ فلم تجِدْ أعْلامهنّ عن العَفاءِ مُحيدَا
الاّ مواقدِ كالحمامِ جواثماً وترى باختلاف الظّباءِ كَديدا

رسم الشاعر في الابيات السابقة، أبعاد هذا الموقف الباكي ، حينما هاجت في نفسه ذكرى الأوطان ليتذكر تلك العهود الخاوية ، بيد أنهُ فوجئ بما أحدثتهُ يدُ الزمان ، لكن الصورة التشخيصية للزمان وقد أطلقت يدها على المكان فعاثت بهِ ، لتوحي بمرارة الفقد والحرمان للأعلام إذ يقول : (فلم تجد أعلامهن عن العفاءِ محيدا) ، وكأنهُ طريق لا رجعة منهُ ، ولا مناص من العفاء ، وهو الزوال والهلاك

وفي هذا المشهد الحزين يظهر رمز الحمام مسبوقاً بكلمة (مواقد) التي تشيرُ إلى موقد النار ، ومتبوعاً بكلمة (جواثما) ،التي تدل على الثبات والاستقرار ، إذ لم يبقَ من آثار ديار الاحباب سوى مواقد كانت يُطهى عليها الطعام، فما بقي من هذهِ المواقد الصخور فقط وهي جاثمة على الأرض ، مثل الحمام التي تحتضنُ بيضها ، وبذلك يوظّف الشاعر الحمام هنا رمزاً يدلُ على الثبات والاستقرار ، والمكوث الطويل .

وبذلك فقد أتخذ الشعراء الاندلسيون الحمامَ رمزاً دالاً على أحزانهم ، وأتراحهم ،حتّى أصبح ظاهرة مألوفة في شعرهم ، ومن الجديرِ بالذكر أنَّ الحمام قد أضحى في الشعر ، لدى شعراء بني الأحمر ، شبيهاً بالشعراء انفسهم ، في عشقهم، وغربتهم، وحنينهم، حتّى أنَّهم طلبوا من الحمام أنْ يشاركهم في أحزانهم بالبكاءِ والنوح ،وقد حاولوا تعليل البكاء بالقول : إنّها ((تبكي زوجها الذي فارقها)) [٢٢] .

ثانياً / رمزية الغراب :

يحملُ هذا الطائر في أذهان الناس، والشعراء ، والأدباء ، معاني الأسى والحزن ، والألم ، وما يترتب على ذلك من التشاؤم ، وتلك الصفات ملازمة لهذا الطائر ،فنلاحظ أن هذهِ المعاني التي انطبعت عليهِ كانت ملازمة لهُ في المشرق وانتقلت ذاتها إلى الاندلس ،إذ صوروا هذا الطائر في شعرهم بالصور المرعبة، والمخيفة ، وجعلوا صوتهُ مؤذناً بالموت ، وحاملاً لخبرهِ ، وكان كثير من شعرهم في المناسبات المؤلمة يدورُ حول نعيب الغراب كما سموهُ واستنبطوا منهُ ، عند فقدِ عزيز او الوقوع في مصابٍ عظيم وما إلى ذلك [٢٣]

جاء في لسانِ العرب ((الغُراب: الطائر الأسود ، والجمع أغربة، وأغرب ، وغربان ، وغُرب ، وغرابين : جمع الجمع ، والعربُ تقول فلان أبصر من غُراب ، وأحذر من غراب ، ويقولون : أشأم من غُراب ، ويقولون: هذا غرابُ فلان إذا شاب شعره)) . [٢٤]

فإذا كان الحمام قد ارتبط عند الشعراء بالدلالة على الشجنِ والحزنِ فإنّهم قد ربطوا بين الغُراب والشؤم ومن تشاؤم العرب بالغُراب إنّهم قد اشتقوا لهُ اسماً من الغربةِ والاغتراب ، ويمكن أن يكون اسمهُ مشتقاً من (الغربيب) وهو صفة اللون الأسود شديد السواد [٢٥] ، وقيل لكل غُراب أنهُ غرابُ البين ، وما ذلك الاّ لنزولهِ في أماكن منازلهم إذا غابوا عنها [٢٦] .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٢ – المجلد ٤٨ – حزيران لسنة ٢٠٢٣

ويلاحظ أنّ الشعراء قد أجروا موازنة بين نعي الغراب ، والفراق الذي يحصلُ بين الأهلِ والمحبين ، وعبروا عن طريق ذلك عن كثير من معاني الوحدة ، والم الفراق ، وما يترتب على ذلك من حسرة وألم وقد ((سموا الغراب الذي حملوهُ هذهِ المسؤولية بغرابِ البين)) [٢٧]

ونجدُ الشاعر عبد الكريم القيسي يوظّف الغراب بوصفهِ رمزاً للشؤم نحو قوله : [٢٨]

وخطيبٍ لمْ ترَ العينُ لهُ ... في الورى مثْلا إذا ما يخطبُ
طوّل الخطبة حتّى كاد من ... طُولها وقتُ الصلاةِ يذهبُ
خلِتهُ وهو على منبرهِ ... فاغراً فاهُ غراباً ينعبُ
وكأن المُسمعينَ الوعظِ للنّومِ ... موتى فيهم يستغربُ
يا نباحُ الكلبِ أنت المُشتهى ـــ دون ما يأتي بهِ المستعذبُ ـــ

يصور الشاعر في هذهِ الابيات مشهد خطيب وقد أنزل الملل لدى سامعيهِ ، إذ تعمّد أن يطيل الخطبة بصورة كاد وقتُ الصلاةِ ينتهي ، ومما زاد المشهد غرابة هو حال المستمعين الذين خلدوا إلى النومِ ، فهم يغطّون في سباتٍ عميق ، وكأنهم موتى .

يوازن الشاعر بين نباح الكلب ، مقرناً ذلك بصوتِ الخطيب الجهوري المزعج للسامعين ، وصوت الغراب وهو ينعق في الجنبات ، بصورة تترك في نفوسِ السامعين أثراً تشاؤمياً سيئاً.

ونتساءل : ما العلاقة التي تربطُ بين هذا الخطيب ، وبين هذا الغراب ؟ الإجابة تتحدد في ما وصف بهِ الشاعر الخطيب ، إذ قال (فارغاً فاهُ غراباً ينعب) ، فالغراب والخطيب يشتركان في جانبين هما :

ـــ الغراب كان فارغاً فاهُ، وهذا لهُ دلالة شكلية وصوتية ، صوت مرتفع ولكنه من دون فائدة .

ـــ الغرابُ ينعب ،وهذهِ صفة لها دلالة معنوية ،تنذر بالشؤم على المحيطين بهِ ،والسامعين له

والشاعر أبو البقاء الرندي يوظّف الغراب بوصفهِ رمزاً دالاً على ظهورِ مرحلة الشيب ، وما يستتبعها من وهنٍ وكبر ، نحو قوله : [٢٩]

وإنّ أماني الهوى لشهيةٌ ... ولكنّ وقارُ الشّيب قالَ لها اقعدِ
وما كانَ إلاّ غيهباً لاحَ صبحهُ ... فأبصرَ فيهِ كلّ أغيدِ
وليس غرابُ البينِ في أعينُ المها ... سِوى الشيبِ إلاّ انّهُ غير اسودِ
وما أبقتْ الأيامُ إلاّ تعلّلا ... بذكرِ عُهودِ من حبيبٍ وعهدِ

يصور الشاعر ، في هذهِ الأبيات ، المرحلة العمرية التي ترافق حياة الإنسان ، لتكشف عن تقدمه في العمر، وانتقالهُ من مرحلة عمرية إلى أخرى ، وهي المرحلة التي يشتعل فيها الرأس شيبا ، إذْ تتبدى علامات الشيب على ملامح الوجه، وأعضاء الجسم ، فتحدثُ انقساماً نفسياً حاداً ، بين نفسٍ تتوق إلى الحياة ، تتجلى في قولهِ (وانّ أماني الهوى لشهيةٌ) والقلب متعلّق بتلك الأماني ، مؤمل أن يحياها ، بيد أنَّ الشيب قد بدا واضحاً على البدن ،وهنا تظهر الخيبة ، وقد عبّر عنها الشاعر بقولهِ : (ولكنّ وقارُ الشّيب قال لها اقعدُ)

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٨ – حزيران لسنة ٢٠٢٣

،تلك كانت المأساة النفسية بين قلب يريد أن يحيا بأمانيهِ ، وبين جسم ظهرت عليهِ علامات الشيب إذ فرضت عليهِ سلوك الوقار الذي يناسب مرحلة الشيب ،

وهذا المعنى ربطهُ الشاعر بمعنى الغُراب ، الذي يحمل في الثقافة العربية ، معاني التقزز، والنفور ، والرفض ، وأيضاً فإنهُ يتصف بالشؤم لأنهُ يستحضر معنى الفرقة والتشتت .

يصور الشاعر تلك المرحلة العمرية ، بقولهِ : (وما كان الاّ غيهباً لاحَ صبحهُ) فما زال الشعر غيهباً حالكا بلونهِ الأسود ، وقد خلع الشاعر على الشيب رمز غراب البين على الرغم من لونهِ الأسود ، ليعزز دلالة الشباب في قلبهِ ، ونفسهِ ، فقد أتت الأيام عليهِ ولم تبق الأيام إلاّ ذكريات وعهود ، وبذلك يكون الشاعر قد وظّف غراب البين رمزاً دالاً على زوال الشباب .

وقد أكثر الشعراء من ذكر الشيبِ والشباب وأطنبوا في خطابهِ ، وتفننوا في وصفهِ ، وأبانوا عن هواجس النفس اتجاهه ، فقد كانت رزية فقد الشباب شديدة الواقع على النفس فهي واحدة [٣٠] .

ويتجلى الغرابُ رمزاً للخوف في شعر ابن زمرك إذْ يقول : [٣١]

ويا رُبّ ليلٍ راعني بغرابهِ زجرتُ له من أشهبِ الصبحِ بازيا

إنّ الشاعر يروّعهُ الليل بظلامهِ ، وهنا يتبدى الغراب بوصفهِ رمزاً للظلام المعنوي ، وهذا الليل نفسي إذ يعاني في أثنائهِ الشاعر من لواعج الفُرقة ، وضياع الأمل ، من هنا يتمنى الشاعر لو أسفر الصبح ليُزيل ظلمة الليل ، والليل من الرموز التي تثير ، ((الاشجان ، والظنون ، والمخاوف)) [٣٢] ،في هذهِ الابيات تضادٌ لوني رمزي بين طائر الغراب، وطائر البازي نلاحظهُ كالآتي :

ـــــ الغرابُ ، لونهُ أسود ، يرمز من خلالهِ الشاعر إلى الليل المخيف المظلم ، شديد السواد ، كما في قولهِ : (يا ربّ ليلٍ راعني بغُرابهِ) .

ـــــ البازي ، لونهُ أبيض ، يرمز هنا للصبح الذي يحمل الطمأنينة للشاعر ، فالصبح بنورهِ واشراقهِ يحقق الراحة والسكينة للشاعر ، كما في قولهِ : (زجرتُ لهُ من أشهبِ الصّبحِ بازيا).

ونطالع الشاعر لسان الدين بن الخطيب، وقد جعل من الغراب رمزاً لمرحلة الشباب إذ يقول : [٣٣]

يا طلعةَ الشومِ التّي مهما بدتْ يئستْ عُفاةُ النّجح منْ أسبابهِ
يا وقفةَ النّاعي بمقتلِ واحدِ أذكى على الأحشاءِ حُرَّ مُصابِ

...

يا صبغةَ الشيبِ الملمّ بعارضِ زجرتْ حمائمهُ غُرابَ شبابهِ
يا موقع الفقرِ الشديدِ على الغّنى من ذي ضنى تُغري الفلا بركابهِ

يوظّف الشعر ابن الخطيب ، لفظة (غُراب) ليرمز إلى الشعر الأسود ، ليمثل مرحلة الشباب ، وجاءت لفظة (الحمائم) لترمز إلى الشعر الأبيض ، والذي يمثل مرحلة الشيب .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٨ – حزيران لسنة ٢٠٢٣

خرج الغراب هنا، عن رمزيتهِ المعتادة والمعروفة عند الشعراء ، وهذهِ النظرة التشاؤمية بحقهِ ، إذْ اصبح الغراب رمزاً إيجابياً لأنه يمثل مرحلة الشباب ، ولأنهُ يدل على مُقتبل الحياة ، أما الحمائم فقد أصبحت رمزاً سلبياً ،لأنها مثلت مرحلة الشيب، وانتهاء العمر .

ويجمع الشاعر ابن زمرك ، بين رمزي الغراب والحمام في معرضِ الشكوى قائلاً : (٣٤)

تذكرتُ لي بالغَضَا عهدَ أنسٍ فشبَّ الغضا بفؤادي ضِراما
ليالي رفَّ عليَّ الشبابُ بمورِدِ عيشٍ صفا لي جماما
تنافسُ ثغري الرّياضُ أقاحا وتحسدُ قدّي الغّصونُ قواما
وما خلتُ دهْري تلوّن حتّى أعادَ غُراب شبابي حَمَاما

يرسم الشاعر بكلماتهِ صورة لحياتهِ بين مرحلتين اثنتين :

المرحلة الأولى : مرحلة الشّباب التي يمتزج فيها الجمال الإنساني ،بمكامن الجمال الطبيعي ، وقد استعان الشاعر بالصور التشخيصية لربط العلاقة بينهما ، إذ تحوّل الرياض إلى منافس كبير للثغر ، في حلاوة المذاق ، ويتحاسد القدّ مع الغصون أيهما أجملُ قواماً من الآخر ، لتتكامل نواحي الجمال لديهِ .

المرحلة الثانية : يخلّف فيها الشاعر شبابه إلى كهولته ، وهي مرحلة فارقة في حياتهِ ، إذ فوجئ من تلّون دهره، فالصورة تجمع بلونين مختلفين وهما لونان معنويان يرمزان إلى اختلاف الأحوال ، يجسدهما الغراب، والحمام بوصفهما رمزين يضربان في عمق الثقافة العربية ليحيل كل منهما إلى مرحلة عمرية محددة ،فالحمامة ، ترمز إلى مرحلة الفقد المادي والمعنوي ، أي فقد الشباب ، والصحة ، والقوة ، مرحلة التغّير في الجسم مادياً ومعنوياً ، في حين يرمز الغراب إلى مرحلة الشّباب ، والنضّرة ، والصّحة ، والانطلاق .

الخاتمة :

يتضحُ مما تقدّم في هذا البحث :

ـــــ لقد تفاعل الشاعر الأندلسي مع الطيور ، مؤثرةً فيهِ ، كونها أصبحت تمثل معادلاً موضوعياً للشاعر يحاكيها ويبوحُ إليها اسراره وما يعانيهِ من هموم ، فعلى أثر ذلك نشأت علاقة نفسية بين الشاعر وتلك الطيور

ـــــ يتحول الطير في الشعر ، ليغدو صديقاً أو عدواً ، أو حبيباً ايضاً يناجيهِ الشاعر ويبوحُ إليهِ بمكنونات نفسه ، وقلبه ، وهذا ما لمسناهُ في نصوص شعراء بني الأحمر .

ـــــ لقد تعامل الشاعر الأندلسي مع رموز الطير (الحمامة والغراب) تعاملاً واعياً بأهميتها في المدلول الرمزي لذلك بثَّ من خلالها في نصوصهِ الشعرية المتنوعة ما جسّد خلجات نفسه فرحاً ، وحزناً ، تفاؤلاً ، ويأساً ...

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٨ – حزيران لسنة ٢٠٢٣

الهوامش :

(١) التجديد في الشعر الأندلسي قراءة في نماذج مختارة ، د. خالد عبد الكاظم عذاري ، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية ، ع٤، مج ٤٤ن ٢٠١٩ م : ٧٥

(٢) يُنظر : ذكرى الحاضر ، عبدالله طهمازي : ٧٢

(٣) يُنظر : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، د. محمد فتوح أحمد : ٣١٠

(٤) يُنظر: الرمز الشعري عند الصوفية ، د. عاطف جودة نصر : ٢٩٦

(٥) وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي ، د. ستار جبار رزيج ، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية ، مج ٣٦، ع ٢، ٢٠١١م : ١٢

(٦) يُنظر: مخاطبة الطير في الشعر العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، حمد بن علي بن حمد ، رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ٢٠١٤م : ١٧

(٧) الطبيعة في الشعر الجاهلي ، د. نوري حمودي القيسي : ١٨٩

(٨) الحمامة بوصفها رمزاً للمرأة ، د. حسن جبار الشمسي ،د. منصور مذكور شلش ، مجلة أهل البيت ، ع ٨ : ٢٦

(٩) الحمام في الشعر الأندلسي ، عبد الرحيم حمدان ، مقال منشور ، www.diwanalarab.com

(١٠) ديوان ابن زمرك الأندلسي ، تحقيق : د. محمد توفيق النيفر : ٥٦

(١١) ديوان ابن فركون ، تقديم وتعليق ، محمد ابن شريفة : ٢٠٧

* الطوق حُلي يُجعل في العنق ، وكل شيء استدار فهو طوق ، مثل طوق الرحى الذي يدير القطب ، والجمع أطواق ، والمطوقة من الحمامة التي في عنقها طوق ، يُنظر: لسان العرب : مادة طوقَ

(١٢) المصدر نفسه : ٢٩٨

(١٣) الشعر الأندلسي ، إميلو غرسيه غومس ، ترجمة : حسين مؤنس : ٦٠

(١٤) ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي ، تحقيق : د. جمعة شيخة ، د. محمد هادي الطرابلسي : ١٠٨

(١٥) الحمام في الشعر الأندلسي ، مقال منشور ، شبكة المعلومات الدولية

(١٦) يُنظر : الطبيعة في الشعر الجاهلي : ١٨٩

(١٧) ديوان ابن خاتمة الأنصاري ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية : ٣٧

(١٨) يُنظر : الحمام في الشعر الأندلسي ، مقال، شبكة المعلومات الدولية

(١٩) ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني ، تحقيق : د. محمد مفتاح : ٢/ ٦٢٢

(٢٠) الحمام في الشعر الأندلسي ، مقال، شبكة المعلومات الدولية

(٢١) ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني : ١/ ٣٥١

(٢٢) الحيوان ، الجاحظ : ٣/ ٢٤٢

(٢٣) يُنظر : وصف الحيوان في الشعر الأندلسي ، د. حازم عبدالله خضر : ١٥٩

(٢٤) لسان العرب : مادة غربَ

(٢٥) يُنظر : الحيوان : ٢/ ٣١٦

(٢٦) يُنظر : المصدر نفسه : ٣/ ٤٣١

(٢٧) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي : ١٥٩

(٢٨) ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي : ١٧٧

(٢٩) ديوان أبي البقاء الرُندي ،تحقيق: د. حياة قارة : ١٢٩

(٣٠) يُنظر: الثنائيات المتضادة في شعر المخضرمين ، نضال أحمد باقر ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٨ م : ٤٠

(٣١) ديوان ابن زمرك الأندلسي : ٣١٥

(٣٢) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر : ٢٧٦

(٣٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني : ١/ ١٣٧

(٣٤) ديوان ابن زمرك الأندلسي : ٣٤٦

مصادر البحث :

أولاً : المصادر والمراجع

١ـــ الحيوان ، الجاحظ ،تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده ، مصر ، ط٢ ، ١٩٦٨م

٢ـــ ذكرى الحاضر ، عبدالله طهمازي ، سلسلة كتابات جديدة ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٤ م

٣ـــ الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ،د. محمد فتوح أحمد ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٤م

٤ـــ الرمز الشعري عند الصوفية ، د. عاطف جودة نصر ، دار الأندلس ، و دار الكندي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٨ م

٥ـــ ديوان ابن خاتمة الأنصاري ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، دار الفكر ، دمشق سوريا ، ط١ ، ١٩٩٤م

٦ـــ ديوان ابن زمرك الأندلسي ، تحقيق :د. محمد توفيق النيفر ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٩٩٦م

٧ـــ ديوان ابن فركون ، تقديم وتعليق : محمد ابن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة التراث ، ط١ ، ١٩٨٧ م

٨ـــ ديوان عبد الكريم القيسي الاندلسي ، تحقيق : د. جمعة شيخة ، و د. محمد الهادي الطرابلسي ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، بيت الحكمة ، قرطاج ، ١٩٨٨ م

٩ـــ ديوان أبي الطَّيب صالح بن شريف الرندي ، تحقيق: د. حياة قارة ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، الإسكندرية ،ط١ ، ٢٠١٠ م

١٠ـــ ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني ، تحقيق : د. محمد مفتاح ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٩٨٩م

١١ـــ الشعر الأندلسي ، إميلو غرسيه غومس ، ترجمة حسين مؤنس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٢ م

١٢ـــ الطبيعة في الشعر الجاهلي ،د. نوري حمودي القيسي ، جامعة بغداد ، ط١ ، ١٩٧٠ م

١٣ـــ لسان العرب ، ابن منظور ، دار احياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، ط٣

١٤ـــ وصف الحيوان في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ،د. حازم عبدالله خضر، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧ م

ثانياً : الرسائل والأطاريح

١ـــ الثنائيات المتضادة في شعر المخضرمين ، نضال أحمد باقر الزبيدي ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٨م

٢ـــ مخاطبة الطير في الشعر العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، حمد بن علي بن حمد ، رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ٢٠١٤ م

ثالثاً : البحوث المنشورة

١ـــ التجديد في الشعر الأندلسي قراءة في نماذج مختارة ، د. خالد عبد الكاظم عذاري ، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية ، مج ٤٤ ، ع ٤ ، ٢٠١٩م

٢ـــ الحمامة بوصفها رمزاً للمرأة ، د. حسن جبار الشمسي ،د. منصور مذكور شلش ، مجلة أهل البيت ، ع ٨

٣ـــ وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي ، د. ستار جبار رزيج ، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية ، مج ٣٦، ع ٢، ٢٠١١م

رابعاً : المقالات

١ـــ الحمام في الشعر الأندلسي ، عبد الرحيم حمدان ، مقال منشور ، www.diwanalarab.com